مناديل بحر بورسعيد

أنيس منصور

لا أريد

أن أحمل مدينة بورسعيد أكثر مما تطيق. فى مياه بورسعيد نزلت لأول مرة. ولكى أكون صادقا لم أنزل الماء تماما. وإنما مددت له يدى. ثم رددتها بسرعة. فقد لمسها شىء ناعم أخضر اللون فالتهبت يدى، ثم ذراعى كلها فى لحظة واحدة. أما الذى حدث فإن حيوانا يسمونه «منديل البحر» قد لمس يدى.. هل هو «منديل» البحر؟. هل هو «قنديل» البحر؟. هل هو قطعة رقيقة جدا من جهنم فى حالة دفاع عن النفس؟!

هذا ما حدث. وظللت بعد ذلك لا أقرب البحر مطلقا. وأعترف أنى رأيت أجمل بلاجات الدنيا.. هذه العبارة ليست فيها أية مبالغة - فقد سافرت إلى القارات الخمس وملأت عينى من كل شواطئها الجميلة، وملأت عينى أكثر بالجميلات اللاتى نزلن إلى البحر فى ألوانهن الجميلة.. أو فى ألوان بشرتهن الجميلة.. ورأيت أن البحر الحقيقى ليس الماء.. ولكنهن البحر.. هن الأمواج الحية.. هن النار التى تنزل إلى البحر، فلا هى تحرق البحر، ولا البحر قادر على إطفائها.. ووجدت فى مثل هذه المعانى ما يكفينى زادا يملأ العين ويوجع القلب.. ولم أنزل البحر!.

والسبب الحقيقى هو أننى لا أعرف السباحة. وحاولت أن أتعلمها. ولم أفلح. على الرغم من أن هذا ضد الطبيعة. فكل جسم فى الدنيا يمكن أن يطفو إلا الطوب والحجارة والحديد.. أما بقية الأجسام: من إنسان وحيوان ونبات فكلها قابلة للطفو.. إلا أنا.. وهذا يؤكد أن الإنسان من تراب!

ولذيا عندما سألوا أحد الفلاسفة: لماذا لا يسبح فى الماء؟ قال البيت الشهور:

لا أركب البحر أخشى على منه المعاطب.

أنا طين، وهو ماء. والطين فى الماء ذائب!

وأنا أرى أن هذا «قصر ديل» - أى عجز عن السباحة.. فليس صحيحا أنه طين وأنه إذا نزل إلى البحر ذاب.. وإنما هو مغطى بالطين، من قلة الاستحمام، وأنه إذا نزل إلى البحر، فإن الطين الذى يغطيه ينوب فيكون أخف وزنا، وأقدر على الطفو.. ولكن الفيلسوف أعجبه اللعب بالطين والماء والذوبان.. واكتفى بهذا القدر.. ولم تكن عنده الشجاعة أن يعترف بجهله بالسباحة.. ولا أقول إنه وجد فى المابوهات ما يغنيه عن البحر وجمال البحر والاسترخاء على صدر الموج.. ثم الارتماء على الرمال مستلما للشمس والنوم!.

■ ورق مرة أخرى تشجعت وأنزلت إحدى قدمى فى مياه جزيرة كابرى..

ولا أعرف سببا واضحا لذلك.. وأغلب الظن أننى عندما رأيت أحد الإيطاليين يرتدى بنطلونا مثلها لبنطلونى. وكان بنطلونا جديدا. لاحظت أن البنطلون قد تمزق بسهولة.. وأن قماشه رفيق أكثر مما يجب.. ففسرت ذلك بأن الرجل لا بد أن يكون قد سقط فى الماء.. وأن مثل هذه الملابس الرخيصة لا بد أنها مغشوشة. وهناك أشياء كثيرة مغشوشة فى إيطاليا: ابتداء بالفلوس وانتهاء بالبنطلونات. فأنزلت ساقى إلى الماء.. وكانت الأرض قريبة.. ثم أمعنت فى إنزالها حتى بلغ الماء ما يقرب من الحزام..

ولن يصدقنى أحد إذا قلت إننى أخرجت ساقى عارية تماما.. فقد ذاب البنطلون.. لقد كان مصنوعا من الورق اللين على شكل نسيج.. لم يكن نسيجا.. ولك أن تتصور منظرى.. وأن تتصور السعادة التى أدخلتها على الجميع عندما رأوا بنطلونا بساق واحدة..

ولم أجد حرجا بعد الفضيحة هذه من أن أخلع الساق الأخرى وأحشر نفسى فى الزحام نصف عريان بين العراة!

■ ومرة أخرى كنت فى مدينة هونولولو بجزيرة هاواى..

الجزيرة فى قلب المحيط الهادى. وكل شىء هادىء قولا وفعلا.. الموج والقمر والهواء والناس هامسون، والفتيات سابحات.. أو هامسات سابحات.. والمشاعل هامسة الدخان.. فمن الذى لا يغريه الهدوء بالاسترخاء.. ومن الذى لا يستدرجه الاسترخاء إلى النوم على الرمل تحت القمر.. ووضعت تحت رأسى عددا من حبات الأناناس وبعض أوراق الموز ونمت لأفز فى حالة صراخ كأن ثعبانا لسعنى.. أو كأننى أنا ثعبان لسعت عشرات الناس من حولى..

لقد زحف ماء المحيط الهادى هادئا ناعما حتى أغرقنى الا رأسى.. ولم أشعر بذلك.. ولما شعرت تذكرت أننى يوما غرقت فى النيل عند المنصورة وأنا طفل.. فنهضت صارخا.. ولم أدر أن الناس حولى قد جلسوا ونامروا ورقصوا وسعدوا جدا بأن ماء المحيط قد غطاهم بستار رقيق ناعم دغدغ أوصالهم.. إلا أنا. فقد ارتددت طفلا صغيرا غارقا، فراح يصرخ.. والناس من حولى يضحكون كيف إن رجلا طويلا عريضا قد أصابته لوثة الأطفال الصغار..

ولم أجد الشجاعة فى أن أدعو الناس جميعا وأشرح لهم حقيقة الأمر.. فلا أنا أعرف الناس، ولا الناس يهمهم أن أجنبيا جاء من المنصورة إلى جزيرة هاواى ليلقى عليهم محاضرة موضوعها: أن المخاوف التى نعانيها فى الطفولة تظل مترسبة بنا مدى الحياة.. حتى إذا وجدت لها مناسبة، خرجت وإذا بنا أطفال من جديد!

□□□

ثم هذه المرة الاخيرة فى بورسعيد.. ولم أحتج الى ان اضع يدا أو ساقا فى الماء.. فقد علقت بورسعيد مناديلها وتنادبلها امتنانا للرجل الذى فتح الله عليه، ففتح على بورسعيد البحر سفنا، والسماء ذهبا وفضة، والارض أمانا..

ولم يكن البحر فى حاجة الى ان يلقى بأمواجه الى الشاطىء.. ولا السماء فى حاجة إلى أن تسقط مطرها على الناس.. فالناس أمواج، ودموع الفرحة أمطار غزيرة.

واغمضت عينى لا تذكر ان مدينة البندقية الايطالية هى ايضا كذلك: شوارعها هى بحرها، وناسها هم موجها.. وهم جميعا سعداء!

إلى الدكتورة سعاد!

فجيعتى فى د. سعاد ماهر لا حدود لها!

فقد استمعت إلى حوار لها فى التليفزيون يوم الأربعاء الماضى..

أبادر فأقول إنها حرة تماما فى غطاء الرأس الذى تضعه.. هى حرة أن تجعله عمامة هندية أو قبعة برازيلية.. هذه مسألة مزاج خاص. أو عناد خاص.. فلا يهمها ما الذى يراه الناس فى التليفزيون. ولكن يهمها جدا ما الذى تراه هى فى المرآة.

وان كنت أعتقد أنه يهمها جدا ما يقوله الناس عنها.. وإلا ما ارتدت العمامة والقفطان - الثوب الذى يشبه القفطان - ويهمها أن يقول الناس عنها إنها «شيخة» أو صاحبة الفضيلة أو الحاجة. لأننا إذا أضفنا إلى مظهرها هذا حركتها وهى تتايل يمينا وشمالا. وتضرب بعينيها فى خفر وحياء.. كل ذلك يدل على أنها حريصة على ما سوف يقوله الناس فى مظهرها.. وفى الأسباب الحقيقية التى جاءت بها إلى التليفزيون. أما الأسباب فهى أنها أستاذة وعميدة للآثار. وأن لديها من العلم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر.

وأعترف أنا شخصيا أن الذى سمعته من د. سعاد ماهر، لم يخطر على بال. وعندما خطر على بالى قد أوجعنى. وجعل فجيعتى فيها لا حدود لها.

وأنا أدعو الله - مخلصا - ألا يكون أحد قد تطاول على الشريط الذى سجل عليه هذا الحوار ليمحوه - وان كنت أتمنى أن يمحوه أحد إلى الأبد.

فقد أخطأت د. سعاد ماهر فى النحو واللغة عشرات الأخطاء.. أى والله. لا خبر أن ولا اسم كان..

والحقيقة الكبرى أن حرف «إلى» الذى يجر السماء والأرض.. هذا الحرف الصغير التافه القادر على أن يجر الكون ويكسره.. لم تصل قدرته وجبروته إلى د. سعاد ماهر.. فقد ألغت قدرة هذا الحرف وجعلته ينصب ويرفع.. وهذا عجيب!؟

وغير ذلك من الأخطاء الفظيعة المخجلة.. أنا شخصيا قد خجلت. وأحسست أننى أقف عمارة شاهقة على غير أساس.. وأن العمارة قد وقعت.. وأن هذه العمارة كانت لها عمامة مثل قبة الجامعة.. ثم تهدمت!

إنها مبادىء النحو والصرف! إنها لا تحتاج من أستاذة كبيرة فى السن والمقام والحجم والوزن والعمامة أكثر من ساعة لتعرف حركات إن وكان وفى وعلى وإلى!

ولحسن حظ د. سعاد ماهر، فإن الطلبة جميعا مشغولون بالمذاكرة هذه الأيام.. الطلبة الذين يعرفون جيدا هذه المعلومات التافهة فى النحو. أما الطلبة الصغار جدا الذين يجدون صعوبة فى معرفتها فهم يلعبون فى الشوارع فقد امتحانهم فيها ونجحوا..

وهى سيدة محظوظة حقا لأن هؤلاء الصغار لو رأوا ما رأيت وسمعوا ما سمعت لقالوا لأنفسهم: إذن من الممكن ألا يعرف أحد مبادىء النحو ومبادىء الحساب ويكون عميدا ووزيرا.. فلماذا المذاكرة ووجع الدماغ..

والحق معهم..

وأرجو الله مخلصا، بعد أن تتاح للدكتورة الأثرية سعاد ماهر فرصة مشاهدة هذا

- ○ البرنامج مرة أخرى تعميقا لشعورها
- ○ بالذنب ومشاركة منها فى كونى، أن
- ○ تطالب معى بمسح هذا الشريط.. أو بمسح الأرض بهذا الشريط حتى لا يراه أحد بعد ذلك، فتلك عقوبة لا يستحقها أحد!

التليفزيون يقطر دما!

هناك طريقتان لكى تكون من الهنود الحمر: أن تكون هنديا أحمر بالفعل، أو تظهر فى التليفزيون الملون هذه الأيام!

لقد شاهدت البرامج الملونة. إنها برامج دامية. دموية. ولا توجد مناسبة خاصة لاستخدام اللون الأحمر دون بقية الألوان..

فترى الطربة قد ارتدت فستانا أحمر لتغنى لنا حزينا. ولتفسير ذلك يمكنك أن تقول: إنها حرة ترتدى ما يعجبها.. ولكن ما معنى أن تكون الجدران التى وراءها حمراء أيضا.. والأرضية حمراء..

أما السماء فهى أكثر الأشياء تلونا.. فهى مرة حمراء جدا: إذا كان الفستان أحمر فاتحا.. ومرة زرقاء جدا، إذا كان الفستان أحمر غامقا.

أما الألوان السبعة الشهيرة، والتى إذا تداخلت كانت ألف لون، فإن مخرجى التليفزيون لا يعرفونها.. وكل الألوان عندهم: أحمر وأزرق.

فالتليفزيون يقطر دما هذه الأيام.. والعيب فى أيدى المخرجين.. أو فى المخرجين ولو كان هذا التليفزيون فى أسبانيا لهاجت الثيران على السكان.. فالثيران فى أسبانيا لا تكاد ترى اللون الأحمر حتى تثور وتهيج.. ولذلك يستدرجونها أثناء المصارعة باستخدام العباءات الحمراء..

ونحمد الله أننا لسنا فى أسبانيا وأن الثيران التى عندنا ليست بهذه الكثرة، ولا التليفزيون ملقى على الأرصفة والمقاهى..

وحتى لو كانت عندنا هذه الثيران فإن مخرجى التليفزيون سوف يصبغون عيون هذه الثيران باللون الأزرق، فلا ترى الثيران شيئا أحمر.. وبذلك لا تثور..

وأمام المخرجين حل وحيد لعلاج أزمة اللون، أو عقدة اللون هى أن يصبغوا عيوننا أيضا.. أو يلفوا الألوان من التليفزيون ونترك لهؤلاء المخرجين فرصة التعرف على بقية الألوان الأخرى!

إن هذا التليفزيون بألوانه الحمراء الدامية يسعد بعض الناس ولست منهم!

أذكر أننى توقفت بسيارتى أمام احدى المكتبات ورأيت فى نافذتها كتابا وقررت أن أشتريه. وركنت سيارتى فى مكان قريب. ولما عدت إلى المكتبة. لم أجد الكتاب. وسألت البائع: ألم يكن هنا كتاب اسمه كذا؟!

قال: لا.. آسف.

- ولكنى رأيته منذ دقائق.

- أبدا. ولكنا طلبنا عدة نسخ من هذا الكتاب. وأعتقد أنها سوف تصل بعد أيام..

- شىء عجيب.. ولكنى رأيته..

وفجأة دخل راحد ومعه صندوق كتب. ومن بين الكتب الموجودة فى هذا الصندوق نسخة واحدة من الكتاب الذى رأيته فى الفترينة..

وأخذت الكتاب وجعلت أفكر فى هذا الذى حدث.. وفجأة وجدت عددا كبيرا من السيارات والتاكسيات كانت تحمل الأعلام الحمراء والقمصان الحمراء.. والجميع يصرخون. ووقفت فى حالة سرحان شديد.. أفكر فى حادثة الكتاب هذه.

وفجأة وجدت إلى جوارى عددا من الحمراء السوفيت وزوجاتهم يسألون: ماذا حدث؟

هنا فقط تنبهت أن مباراة بين النادى الأهلى وبين الزمالك فى استاد ناصر سوف تقام اليوم.. إنها مباراة العام كله..

هنا فقط أفقت من السرحان..

وقلت للسوفيت: ليس انقلابا.. وإنما هى مباراة فى كرة القدم!

وتغيرت ألوان السوفيت.. وأحسست بأنهم مثل التليفزيون الملون وقد تحول فجأة إلى تليفزيون أبيض وأسود.. واختفت الصورة والصوت من عينى ومن أذنى!

مثل هذا التليفزيون يعجب مثل هؤلاء الناس. ولكنه لا يعجبنى.. وسوف نحتاج إلى بعض الوقت وبعض الفلوس وبعض الصبر حتى يستعيد التليفزيون الملون بقية ألوانه.. وبعد أن يستعيد الألوان يتعلم المخرجون موسيقى الألوان

ثم ما الذى يضايقنى؟

فأنا لا أرى التليفزيون فى أى يوم أكثر من دقيقة أو اثنتين.. بعدها أنام.

ولذلك فأنا أرد نفسى عن الحكم فى قضايا الألوان والاخراج والتليفزيون.

ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه!

- ○ وقد عرفتها، فلم يبق إلا أن يرحمنى
- ○ الله!

أنس منصور